إنسانيات عدد 28، أفريل – جوان 2005، ص.ص.55-72

الإثنوغرافيا "الاستعمارية". شارل فيرو نموذجاً

محمّد العربي عقّون*

مقدّمة :

في الدراسات الإثنوغرافية والأنثروبولوجية المتعلّقة بأفريقيا الشمالية تحتلّ منطقة القبائل بقسميها المحافظ والمستعرب[1] مكانة أساسية، منذ الدراسة القيّمة والعميقة التي نشرها كلّ من هانوطو ولوتورنو بعنوان : **بلاد القبائل والتقاليد القبائلية** (1893)، التي أعقبتها أطروحة كامبردون هـاكون (Campredon Hacon) التي حلّلت الأعراف القبائلية (1921)، وكذا أعمال بوسكي (Bousquet) التي تناولت المسائل التي يطرحها تعارُض الإدارة القضائية الاستعمارية التي تطبِّق التشريعات الفرنسية مع الأعراف القبائلية (1950) كما لا ننسى أعمال مارسي (G. Marçais) المتميّزة التي خصّصها لتصحيح منهجية القانون البربري وبالتحديد في موضوع القانون العرفي البربري (1939)، وهي دراسات كلّها تعمل على تقديم أنجع السبل لرسْم سياسة تضمن ديمومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر على الخصوص، ولعلّ الدراسة الوصفية (الإثنوغرافية) التي قام بها فيرو[2]

* قسم التاريخ والآثار – جامعة قسنطينة.

[1] تمتدّ المنطقة القبائلية من ضواحي الجزائر العاصمة غربا إلى ضواحي سكيكدة شرقا، وينقسم سكّانها إلى مستعربين ومحافظين أي الذين لا يزالون يستعملون إحدى لهجات اللغة الأمازيغية، وتعتبَر جبال بابور حدّا فاصلا بين القبائل المستعربين والقبائل المحافظين.

[2] شارل فيرو(1829-1888)، بدأ مساره المهني في الجزائر كمترجم وعمره لا يتجاوز 19 سنة، وكانت كفاءته محلّ اعتبار، ضابط سنة 1873، تولّى منصب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية العام 1876، ثمّ قنصلا عامّا لفرنسا في طرابلس العام 1877، وفي العام 1882 عيِّن قائدا لجوقة الشرف فوزيرا مفوَّضا لفرنسا

(Ch. Féraud) عن منطقة القبائل الشرقية كانت من أولى الدراسات التي لفتت نظر الاستعمار الفرنسي إلى منطقة القبائل الشرقية.

كان فيرو أحد المترجمين العسكريين، وهو من أنشط المهتمّين بدراسة وتدوين عادات وتقاليد وفلكلور الجزائري، فقد أدرك أهمّية الدراسات الإثنوغرافية[3] في ترسيخ الاحتلال، لأنّ تلك الدراسات تمكّن من معرفة ذهنية الشعب وتكشف عن تناقضاته الاجتماعية (في مسائل الشرف والأرض والانتقام وحماية الإنسان والممتلكات...) وذلك من شأنه أن يغني إدارة الاحتلال عن كثير من "المتاعب" بل وحتّى الخسائر التي تنجرّ عن الاعتماد الكلّي على القوّة العسكرية، ولذلك كانت الدراسات الإثنوغرافية ولا تزال أهمّ العناصر التي تُبنى عليها القرارات والإجراءات الاستعمارية، وفي هذا السياق اعتبر الباحثون الإثنوغرافيون أنّ مجتمع الشمال الأفريقي تحكمه منظومتان قانونيتان إحداهما تقليدية عرقية شفوية وهي امتداد لنظم ما قبل الإسلام ومنها تستمدّ الجماعة تشريعاتها، والأخرى إسلامية يعمل بها الفقهاء والطُّلْبة[4]، وكان هانوطو ولوتورنو[5] وماسكوراي وكذا فيرو من أبرز روّاد هذه الدراسات وقد أدركوا قبل غيرهم ما لهذه الدراسات من أهمّية ولفتوا نظر قادة الاحتلال الفرنسي إلى أهمّيتها، ولذلك وظّف لها هؤلاء أبرز الكفاءات، وواظبوا على إدخالها إلى "غرف العمليات" فكانت تنظّم لها أيام دراسية يُدعى إليها ضبّاط الاحتلال وإداريوه لاستيعاب أيّ دراسة جديدة تصل إلى مصالحهم، وبذلك يمكنهم متى أرادوا توظيف ما تحمله من معلومات في إثارة الفتنة والتحريض وتكريس عوامل التفرقة... وضرب أيّ قوّة طليعية وطنية من داخل الشعب ذاته بشتّى الوسائل.... وفي هذا السياق قام فيرو الذي كان يرافق الحملة الفرنسية على قبيلة بني خطّاب الشرقية[6] (جوان 1860) بإنجاز هذه الدراسة التي نقدّمها في هذه المداخلة كنموذج للدراسات الإثنوغرافية التي تركّز

في المغرب العام 1884، هذا الضابط "المكتشف" كرّس حياته للتنقيب في تاريخ أفريقيا الشمالية وتدوينه بروح تملأها الإرادة ومعرفة عميقة بالوسط الأهلي، أهمّ آثاره: تاريخ بجاية.– تاريخ القالة والحوليات الطرابلسية.

[3] الإثنوغرافيا (Ethnographie) هي علم وصف الشعوب وتركز على التقاليد والعادات والأعراف والفلكلور والمعتقدات.

[4] Mahé, Alain, « Entre le religieux, le juridique et le politique : l'éthique. Réflexions sur la nature du rigorisme moral promu et sanctionné par les assemblées villageoises de Grande Kabylie », Paris, Anthropologie et Sociétés, 1996, vol. 20, 2, p.85.

[5] Voir : Hanoteau, A. et Letourneux, A., *La Kabylie et les coutumes kabyles*, Paris, Challamel, 1893, 3 vol., 582 p., 560 p., 524 p.

[6] أنظر موقع القبيلة في الخريطة المرفقة .

على العناصر التي يمكن توظيفها من قبل إدارة الاحتلال بدءا من التعريف بالمنطقة جغرافيا إلى السكّان وأعرافهم وخصوصياتهم الاجتماعية والأسرية[7].

1- بدايات التعرُّف على منطقة القبائل الشرقية:

كتب فيرو في ما يتعلّق بهذا الجانب :"... إنّ سكّان القبايل الشرقية (Kabylie Orientale) [8] لا يختلفون عن سكّان جرجرة، لقد كانوا جميعا ولفترات طويلة متمرّدين على جميع السلطات الحاكمة، وقد احتفظوا بأعراف وتقاليد على درجة كبيرة من الأهمّية لنا(أي لإدارة الاحتلال الفرنسي) للتعرّف عليها ودراستها، وكان الليوطنان-كولونيل هانوطو (Lieutenant-Colonel Hanoteau) سبّاقا إلى الاهتمام بالموضوع فقد نشر دراسة قيّمة بعنوان ميثاق قبايلي (Charte Kabyle)عن سكّان جرجرة"[9].

كان اكتشاف وثيقة كتابية في القبائل الشرقية شبيهة نوعا ما بالوثيقة التي نشرها السيّد هانوطو حافزا للبحث عن تفاصيل جديدة في الموضوع، "... وكان أن حصلنا (يقول فيرو) على الوثائق التي أشرنا إليها وعلى إيضاحات هامّة حولها جمعناها من هنا وهناك ونرى أنّها ذات قيمة تستدعي نشرها، وعلى الخصوص ما يتعلّق بالأعراف فهي تعبّر عن تقاليد أصيلة يبدو بعضها بدائيا، ولكن يمكن استخلاص أنماط تفكير وذهنية هذا الشعب البدائي منها[10]" قبل الاحتلال الفرنسي كانت قبائل بلاد القبايل الشرقية[11] المتحصّنة في جبالها،

---

[7] voir : Mahé, Alain, « Anthropologie historique de la Grande Kabylie XIXe - XXe siècles : histoire du lien social dans les communautés villageoises », Thèse de doctorat de l'EHESS, 3 vol.,1994, 996 p.

[8] المقصود بالقبايل الشرقية في هذا الدراسة هو المنطقة الممتدّة من سفوح البابور الشرقية إلى ضواحي سكيكدة، ويشار إليها في الدراسات الجغرافية بعبارة قبائل القلّ (Kabylie de Collo) وسكّانها من البربر المستعربين المتميّزين بلهجتهم بين سائر سكّان أفريقيا الشمالية، ويبدو من دراسة ألسُنية (Linguistique) أنّ لهجة كتامة (قبائل الحدرة قبل استعرابهم) كانت وسطا بين أمازيغية جبل أوراس وأمازيغية زواوة .

[9] Féraud, Ch., « Mœurs et coutumes Kabiles », dans *Revue Africaine*, VI, 1862, p. 272

[10] Ibid. p. 276-277.

[11] لقد كتبنا قبايـل بالياء في مقابلKabyles، وكتبنا قبائـل بالهمزة في مقابل Tribus.وكان مصطلح قبائل الدالّ على الإقليم وسكّانه قد استعمل منذ تمركز الإدارة الإقليمية الأموية والعبّاسية في القيروان حيث كان يُشار إلى المناطق الجبلية من سكيكدة إلى الجزائر(العاصمة)باسم بلاد القبائل البربرية وحيث أنّ الاسم طويل كما نرى فقد اختُصِر مع الأيام إلى بلاد القبايل،غير أنّنا نرى أنّ التسمية أقدم فمنذ الفترة الرومانية كان يُشار إلى سكّان هذه الجبال باسم تحالُف القبائل الخمس (Quinquegentiani) وهي القبائل التي قاومت

تعيش في فوضى عارمة، وكلّ قبيلة مستقلّة عن الأخرى ولا تخضع إلاّ لجماعتها، والجماعة هي "هيئة" مكوَّنة من الكبار ومن الأعيان الأثرياء ومن ذوي المقامات بل وحتّى من الذين يتمتّعون بقوّة جسدية، وكانت تبعيّة هذه القبائل لبايات قسنطينة اسمية في الواقع، فلم تكن لأولئك البايات القوّة التي يمكن أن يسيطروا بها على تلك البلاد الجبلية[12]، وفي هذه العزلة والاستقلالية التي عاشت في ظلّها هذا القبائل قرونا متتالية ظهر قانون عرفي مستمدّ أكثر من تقاليد هذا الشعب البربري القديمة، لأنّ بعض تفاصيله لا يقرّها القرآن"[13].

02- بعض الملاحظات الدينية

يواصل فيرو حديثه في هذا الجانب قائلا :"... قبايل هذا الجهة مسلمون ولكن إسلامهم شكلي، فهم يقبلون من القرآن ما يوافق مصالحهم أو ما يثير نزعة التطيُّر عندهم، ولكن العادات والأعراف التي تلقّوها من أسلافهم يمكن أن تلغي النصّ القرآني، فمثلا يحدث أن يأمر قاض أو طالب بتطبيق نصّ الشريعة الإسلامية ويرفع عقيرته بذلك ولكن لا أحدً يعيره اهتماما فالجماعة تحكم بموجب العادة (العُرف) ومن هنا جاء المثل السائر عند هؤلاء القبايل: **عَنْد لَقْبايَل القاضي يحكَم ولكن لَجْماعة تبطل حكمه**"[14].

"... إذا كان عند قبايلي قضية يريد تسويتها مع جاره فإنّه يذهب إلى طالب[15] يكون قد وصل إلى القبيلة حديثا ويترجّاه أن يحرّر له قائمة شهود – يمليها هو عليه– يعلنون بأنّه هو المالك الشرعي والوحيد للعقار محلّ الخلاف، وإذا رفض الطالب فإنّ ذلك الشخص يغيب عنه أياما ثمّ يعود إليه ولكن هذه

الاحتلال الروماني في عهد الإمبراطور ديوكليتيانوس، كما يُلاحَظ كذلك أنّ رسم اسم قبايل في الفرنسية سيتطوّر منKabiles إلى Kabyles في وقت لاحق.

[12] حاول عصمان باي فرض السيطرة على هؤلاء الجبليين فسيَّر إليهم حملة، ولكنها انهزمت شرّ هزيمة في الوادي الكبير. وكان العقاب الوحيد الذي استطاع البايات تسليطه عليهم هو القبض على العناصر التي تأتي منهم إلى قسنطينة أو إلى جهات السهول العليا للعمل وإبقائهم كرهائن بل وإعدامهم أحيانا انتقاما مما ارتكبه إخوانهم، عن حملة عصمان باي الملقّب بالاعور، أنظر :

- Féraud, Ch., « Zebouchi et Osman Bey », dans *Revue Africaine*,VI, 1862, pp. 120-127.

[13] Féraud, Ch., « Mœurs … », pp.272-273.

[14] Ibid. p. 273

[15] الطالب في الأساس هو معلّم القرآن وهو الذي يتولّى في الغالب تحرير مختلف العقود والاتفاقيات التي تقرّها الجماعة.

المرّة يأتيه ومعه سلاح وينذر الطالب قائلا له : هاهي خمسة باسيطة (Bacetta) ثمنا لورقك (في يد) وهاهي خمس رصاصات أضعها في بندقيتي وفي بنادق أبنائي وسنفرغها فيك إذا لم تنفّذ ما أطلبه منك (في اليد الأخرى) "[16].

" يواصل فيرو : ... لا ريب أنّ الطالب يتمسّك بالرفض ولكن كما أكّد لي الأعيان أنّه من تلك اللحظة ينبغي له أن يتهيّأ للرحيل نحو قبيلة أخرى للإقامة بأمان فيها، والحال أنّ الرواية الشفوية تتحدّث عن مرابط مستنير في زمن بعيد، اسمه سيدي حسن من بني ورثيلان، وهي قبيلة مركزها غربي سطيف، كان صمّم على تجديد المجتمع القبايلي وأن يحطّم هذه العادات بالقوّة لتهذيب السلوك في هذه القبائل وحيث أنّ المهمّة كانت صعبة وطويلة فإنّ الموت لم يمهله ليكمل جهده الحضاري ومنذئذ لم تقم محاولة مثيلة لمحاولة سيدي حسن الورثيلاني. "[17]

03- بعض الخصائص الحضارية واللغوية والاقتصادية :

يذكر فيرو في هذا الشأن أنّه "... لا توجد لدى سكّان القبائل الشرقية تلك القرى الكبيرة المكتظّة – مثل ما هو موجود لدى كنفدرالية زواوة أو لدى قبايل وادي الساحل وبوسلاّم والبابور– حيث البيوت اللصيقة ببعضها ذات الطلاء الأبيض والمغطّاة بالقرميد، وذلك دليل على شيء من التحضُّر والرفاهية التي هي ثمرة العمل والاحتفاظ بشيء من الصناعة الحرفية، فمن السفح الشرقي للبابور إلى ما وراء سكيكدة شرقا لا نرى عموما سوى أكواخ (Cahutes) بائسة من أغصان الأشجار والطين بسقوف من نبات الديس أو الفلين، وفيها يتساكن الإنسان والحيوان[18] ولا يستثنى من ذلك سوى قلّة قليلة من بعض الموسرين.

وضمن هذه الحدود ذاتها تتغيّر لهجة التخاطب أيضا، فهؤلاء وعلى الخصوص الأشخاص دون الأربعين لا يستعملون لغتهم القبايلية بل ولا يفهمونها

---

[16] Féraud, Ch., « Mœurs ... », p. 273

[17] *Ibid.* p. 273

[18] لعلّ المقصود بالتساكن هنا هو الظرف الخاصّ الذي مرّ به السكّان خلال عمليات المقاومة لأنّ المعروف عن المسكن التقليدي لدى فقراء الريف القبائلي أنّه مسكن أرضي يتكوّن من قسمين بينهما حاجز هما :

– أقنس Agnes للطهي والنوم، ولعل هذه الكلمة مشتقّة من الكلمة اللاتينية Igneus التي تعني: مشتعل، ملتهب أي الموقد.

– ادّابنين(Eddaïnin) خاصّ بالحيوانات وهي الماعز في الغالب والكلمة أمازيغية معناها: أسفل.

بحيث وجدنا (يقول فيرو) أنّ لغة التخاطب عندهم هي خليط من عربية مهشَّمة (Arabe Corrompu) ومفردات بربرية وكلمات وحروف مقلوبة ومصحَّفة، ولفهم لغتهم بالنسبة لمن يجيد عربية أفريقيا الشمالية لا بدّ من التحادث معهم والاستماع إلى الأحاديث المتبادلة بينهم أياما معدودة وبعدها يكتشف التصحيف والقلب في الحروف الشبيه بالترميز(Code)، فمثلا: حرف الكاف ينطَق مثل الشين الانكليزية(Ch) فكلمة **عندك**، وهي في عربية أفريقيا الشمالية تعني احذر، تُنطَق عند هؤلاء: عندَتْشْ (ândetch).

تقلَب فتحة الحرف الأول من الفعل الماضي إلى كسرة ممدودة، مثال: دَرت تصبح ديرت، زدت تصبح زيدت الخ... .

للمذكّر والمؤنّث صيغة واحدة، مثال: روح انتَ (اذهب أنت)، تُقال للمؤنّث والمذكّر، غير أنّ الملفت للانتباه هو استمرار حرف الجرّ اللاتيني: **دي**، مثال : العين دي بوموش[19] معناه نبع بوموش، لَجْبل دي ولاد عستشر، معناه جبل أولاد عسكر ... .

إنّ قبايل هذه الجهة مثلهم مثل إخوانهم زواوة، تجبرهم قلّة الثروة في بلادهم الجبلية على الهجرة في كلّ موسم إلى السهول العليا[20] للعمل في الحصاد والقطف كعمّال يدويين موسميين، وعندما ينوي الواحد منهم مغادرة جباله الغابية متوجّها إلى المناطق الواسعة في الداخل، عليه أن يؤدّي زيارة نذرية إلى ضريح كبير مرابطي قبيلته، يطلب منه العناية وأنّه إن عاد سليما معافى سيقدّم له قربانا، فمثلا أفراد قبيلة زواغة وأولاد عسكر يتوجّهون إلى مرابطهم سيدي وشناق الذي يوجد مزاره في قمّة الجبل ما بين فجّ الاربعاء وفجّ فدولس، وهاهو نصّ الدعاء الذي يتوجّه به هؤلاء إلى هذا المرابط (كما كتبه أحد الطلْبة) :

آ سيدي وشناق[21].
أنا ماشي للقبلة في حْمَاك .
إدا رجعت على خير وعافية .

---

[19] بوموش بتشديد الشين وتفخيمها، كلمة بربرية تعني: صاحب القطّ، وقد احتفظت الذاكرة الشعبية لدى هؤلاء القبايل المستعربين بالاسم البربري لهذا الحيوان(آموشّ) كما هو في أمازيغية جبل أوراس وخصّوا به القطّ البرّي أي السنّور، أمّا اسم القطّ في لهجة زواوة فهو آمشيش الذي هو في الواقع تصغير للاسم الأول : موش (Mochche) .

[20] يقصد بالسهول العليا البلاد من " الصرا إلى السباخ " .

[21] يوجد مزار هذا الولي في أعلى قمّة الجبل المطلّ على قرية تسالة الحالية، إلى الشمال من فجّ امزالة .

نعطيك الوعدة .
ح ا خبيزة دي بومعراف[22].
وحَ الشميعة وزوج صوردي دَ الجاوي.

04- الحملة الفرنسية على قبيلة بني خطّاب الشرقية :

سجّل فيرو في هذا الموضوع ليس كمؤرّخ فحسب ولكنّه كشاهد عيان أنّه " ... في 15 جوان 1860، توغّلت الحملة(الفرنسية)على القبائل الشرقية ووصلت إلى قلب إقليم قبيلة بني خطّاب التي كانت المحرّك الرئيسي لـ"التمرّد" الذي وقع في الجهة، وقد أقامت الحملة معسكرها في أعلى جبل تافرطاس (Tafortas) الذي يعلو 1251م. وفي 19جوان زحف رتل(Colonne) خفيف يتكوَّن من عدّة فرق للاستكشاف نحو سيدي معروف حيث كان "المتمرّدون" قد انسحبوا ومعهم أسرهم وقطعانهم[23].

سيدي معروف منطقة جبلية صخرية جافّة ذات التواءات وعرة المسالك وقمم صخرية مسنّنة غريبة الشكل ممّا جعل الجيش (الفرنسي) يطلق عليها اسم قرون الشيطان (Cornes de diable)، وهي متصلة من جميع الجهات بمنحدرات وجروف عميقة تغوص في مجرى واد حايا (Oued Haïa) وهو أحد روافد الوادي الكبير (الرمال الأدنى)، وهذه القمم تبدو معزولة عن محيطها لولا ممرّ(Col) صخري ضيّق يربطها بجبل بوطويل الذي تمثّل قمّة تافرطاس أعلى قممه.

في الجهة الغربية أسفل سفح صخري تتجمّع باقة من الأشجار ترتوي من نبع مجاور لها، كأنّها واحة، يتوسّطها كوخ (قوربي[24] (Gourbi)) يضمّ ضريح المرابط سيدي معروف[25] الذي يحظى بالاحترام ولذلك سمّي الجبل باسمه.

عند وصول الحملة الفرنسية هناك وجدَتِ القوربي الذي يضمّ قبر المرابط سيدي معروف لا يزال محاطا بعدد من الآنية والصحون والكؤوس وكلّها من

---

[22] " بومعراف" هي خبزة صغيرة من الشعير .

[23] Féraud, Ch., « Mœurs ... », p. 275.

[24] بربري من آقوربي ويعني الكوخ.

[25] ليس في أسطورة المرابط سيدي معروف شيء من الخوارق– ولعلّ الطابع الشفوي محا من الذاكرة كراماته– سوى أنّه قدم من بغداد،كما يروي السكّان أنّ أصواتا كأصوات المدافع تخرج من ضريحه تنبئ بوقوع حوادث غير عادية مثلما حدث عندما غزا عصمان باي المنطقة(1804).

الفخار وهو دليل على"زردة"[26] حديثة العهد حيث اجتمعت القبائل وتمّ أخذ قرار الهجوم على مركز حراسة الغابة الواقع قرب بني مسلم ونهْبه، وكان يتولّى مهامّه كلّ من السيّدين بوك (Bocq) ودولاكروا(Delacroix).

يواصل فيرو : ...في الجهة المقابلة للقوربي باتجاه الممرّ الجبلي الصخري المذكور توجد مغارات طبيعية كان يقيم بها المتمرّدون ولكن غادروها قبل وصول الحملة بقليل، وقد دخلها دليلنا ووجد فيها عددا من الآنية الفخارية مليئة بالسمن وقراب مليئة بالكسكس وفي أحد الأركان اكتشف أحد جنود الفرقة الزواوية[27] (Zouaves) عددا من قصب البوص حُفظت بداخله أوراق تَبيّن بعد فحْصها أنّها على العموم غير ذات أهمّية لأنّها عبارة عن تسجيل بسيط متعلّق بمعاملات السكّان(اقتراض بذور، قوائم شهود...)، غير أنّ المهمّ هو الوثيقة التي وجدتُها ضمن هذه الأوراق والتي تحتوي على النصّ الآتي أدناه[28]:

" الحمد لله وحده وصلى الله على سيّدنا محمّد وءاله وصحبه وسلّم، أمّا بعد فقد حضر بين أيدينا جماعة اولاد بارش[29] جملة كبير وصغير واتفقوا على :

- من ضرب على مالهم فيعطون ديّته على المصباح[30].
- كذلك من ضرب على النيف على زوجته وزوجة ابن عمّه .
- كذلك من ضرب على الضيف ادا كان صاحب معلوم .
- ومن ضرب على البحيرة والحما والوسيق[31] وغير دلك من النيف وقتل أو جرح أحدا من ما دكر فيعطون ديّته على المصباح.

---

[26] المقصود بالزردة هو تجمُّع احتفالي – كما هو عند باقي سكّان أفريقيا الشمالية– حول ضريح مرابط مبجَّل وبعد المداولة يتّخذ قرار بشأن قضية هامّة جدّا في حياة القبيلة ويشترك الجميع في تناول الطعام لتدعيم الروابط، وبعد ذلك يقسم الجميع بذكرى المرابط ويـ "الطعام والملح" بالوفاء في تطبيق ما تمّ الاتفاق عليه، بشأن الدفاع عن شرف القبيلة وحقوقها، كما يمكن أن تقام زردة للصلح بين قبيلتين متخاصمتين... إلخ.

[27] الفرق الزواوية هي فرق مساعدة بلباس أهل زواوة.

[28] Féraud, Ch., « Mœurs... », p. 277.

[29] احتمالا، بارش هو تحريف لاسم امبارك، حُذفت الميم في الأول وقُلب الكاف شينا،وهذه الوثيقة المختصرة تتعلّق بقانون أقرّته جماعة أولاد بارش وهي فرقة من قبيلة بني عيشة، أنظر موقع إقليمها في الخريطة المرْفقة .

[30] المصباح هنا يعني البيت أو العائلة وتقابلها في الفرنسية كلمة (Foyer) .

[31] الوسيق عند القبايل هو كلّ ما يمكن نقله من إنتاج الأرض مثل الحبوب والفواكه .

● من ضرب على مصلحة الجماعة من بلاد ارتغمت او دخمت[32] وقتل أو جرح كدلك يعطون ديّته على المصباح.

● إدا مات أحد من الجماعة وأراد وليّه أن يقتل وقتل أحدا من الجماعة فيسدّ في المقتول.

● إذا قتل أحد من الجماعة خاين النهار تعطى ديّته على المصباح، والمعطية[33] يعطيها القاتل وحده فقط، وأمّا في الليل على المصباح جميع ما يعطون فيه.

● إذا انسرقت سريقة من الجماعة ودارت الجماعة وقرّعوا لمن يفزع وامتنع فخسارته ريال، وكذلك من مشى مع وليّ المقتول وأكل شيء من الفاني فلا رجوع له عليه والسلام .

الشهود الحاضرون : علي بن سليمان، المرابط أحمد بن بوعزيز، أحمد بن سعد ... وجمع كثير .

الكاتب / أحمد بن بلقاسم بولبصير تاب الله عليه ءامين[34].

05- معلومات إثنوغرافية عن الزواج وتكوين الأسرة :

وقد استقى فيرو هذه المعلومات من روايات شفوية قدّمها له الأعيان، يقول : قبل تأسيس الدائرة القضائية الفرنسية أي قبل تعيين قضاة لدى هذه القبائل كان القبايل يعقدون القران حسب عادات وتقاليد أسلافهم، وكان الزواج يتمّ بطريقتين هما زواج الجدي وزواج المعطية :

أ- زواج الجدي : وهو القيام بذبح جدي رمزا لترسيخ الشروط التي أقرّتها العائلات[35] ويلتزم العريس بدفع مهر لوالد عروسه قدره ما بين 70 إلى 90 باسيطا

---

[32] عندما عدنا إلى النصّ الفرنسي وجدنا أنّ فيرو استعمل في مقابل كلمة ارتغمت : اغتصبت (Empiéter) وفي مقابل كلمة دخمت: حُرقت (Incendier)، والمرجّح أنّ الكلمتين من اللغة البربرية لأنّنا لم نجد لهما معنى في اللغة العربية.

[33] في لغة اولاد بارش المعطية هي مصاريف الوليمة (الضيفة) التي تقام على شرف الجماعة عند مداولاتها .

[34] كتبنا النصّ كما هو في أصله دون تعديل أو تصحيح في القواعد النحوية والصرفية للحفاظ على قيمته التاريخية، أنظر : Féraud, Ch., « Mœurs ... », pp. 275-278. -

[35] لم يحتفظ السكّان بأيّ شيء عن أصل زواج الجدي سوى أنّه يعود إلى تاريخ قديم جدّا، ولعلّه يعود إلى معتقدات وثنية منذ الفترة النوميدية، مع أنّنا لا نتوفّر على وسائل أو عناصر البحث في هذا الموضوع،ونلفت عناية الباحثين إلى ضرورة السير بالأعمال البحثية في هذا السياق، وكان قد عُثر على نصّ أثري في فدولس يسجّل اسم القبيلة البربرية الكبرى كتامة التي تفرّعت منها قبائل القبايل الشرقية (les tribus de la

(175 إلى 225 فرنك 1860) وحيث أنّه كثيرا ما يكون هذا المبلغ غير متوفّر فإنّه يعتمد على أصدقائه، والحال أنّه في اليوم المحدّد للعرس يأتي كلّ الأصدقاء مع زوجاتهم وأبنائهم وكلّ واحد يحمل معه ما استطاع من هدايا للعريس الجديد، وتدقّ الطبول وتعزف موسيقى الزرنة والبعض من حملة البنادق يطلق عدّة طلقات وهم يرقصون ويقفزون وتتعالى الأصوات بعبارة : **خلّي البارود يتكلّم**!.

إذا لم يكن للعريس الجديد بيت يأتي الأصدقاء أيضا لمساعدته، بعضهم يقطع الأغصان وبعضهم الآخر يعدّ الطين والقشّ لصناعة الطوب، ويأتي البعض الآخر بنبات الديس(Stipa tenacissima) وألواح من الفلين لتسقيف البيت الجديد .

نعود إلى تقاليد الزواج عند هؤلاء الجبليين وعلى الخصوص الشروط القاسية لزواج الجدي المفروض على المرأة أن تقبل به، ونضيف ما تلقّيناه من معلومات عن تقاليد هذا الزواج لدى كلّ من قبيلتي بني توفوت وبني فرقان وقبائل أخرى.

في حال رفْض طلب الزواج من فتاة لسبب ما، فإنّ على عائلتها منذ إعلانها عن رفضها تزويج ابنتها أن تكون دائمة اليقظة، مواظبة على حراسة محيط منزلها لمنع المحاولات التي يمكن أن يقوم بها "الخطيب العاشق" لأنّ هذا الأخير لا يكفّ عن مراقبة المنزل ومعه أصدقاؤه المقرَّبون، وإذا تمكّن — في غفلة من أهل الفتاة– من ذبح الجدي الذي يرمز دمه كما ذكرنا أعلاه للروابط الزوجية، على عتبة منزل الفتاة، فإنّها ستكون بقوّة العرف من نصيبه[36].

من خلال تقاليد زواج الجدي تكون الزوجة ليس فقط ملكا لزوجها طيلة حياته بل تصبح بعد موته جزءا من الإرث فتصبح ملكا للورثة وفي هذه الظروف تحدث وقائع من الجدير عرضها، فما إن يلفظ الزوج آخر أنفاسه ويموت حتّى يتبارى الورثة كلّ يريد أن تكون الأرملة من نصيبه وفي الأخير يفوز بها أول من دثّرها بحايك أو ببرنوس وبذلك تصبح من نصيبه ولا أحد يمكنه الاعتراض من

Kabylie orientale) وتوجد آثار مهمّة في هضبة العروسة في إقليم بني فتح، كما توجد آثار رومانية في إقليم كلّ من قبيلتي بني خطّاب وبني حبيبي،وكذا قبيلة بني مسلم ...، وفي إقليم قبيلة أولاد علي توجد آثار في المكان المسمّى مْدينة دي بوتو، وفي إقليم بني توفوت توجد آثار هامّة في الموقع المسمّى العارطة دي الصدمة، وغير بعيد عن طريق القلّ — سكيكدة ذُكر وجود نصُب ميغاليثية وهذه المواقع كلّها ينبغي أن **تكون محلّ بحوث أثرية.**

[36] Marçais, Georges, « Le problème du droit coutumier berbère », *La France méditerranéenne et africaine*, fasc. 1, 1939, pp. 7-18.

شركائه في الإرث، وإذا كان للأرملة أبناء فإنّهم ينشأون في منزل السيّد الجديد للأرملة الذي يدير الثروة التي تركها والدهم إلى أن يدركوا سنّ البلوغ[37].

ب- زواج المعطية : عندما ترتكب عملية قتل تحكم الجماعة على الجاني بدفع الدية التي تقدّر بأكثر من ألف فرنك وإذا لم يتمكّن الجاني من جمع المبلغ المطلوب وهو ما يحدث في الغالب، يتمّ اللجوء إلى حلّ آخر هو تقديم إحدى بنات عائلته ومعها خمسون باسيطا تسمّى حقّ الكفن أي كفن الميّت.

سجّل فيرو بأنّ حالات الخيانة الزوجية نادرة في القبائل الشرقية لأنّه في أدنى الشكوك في خيانة الزوجة يقوم الزوج بقطع رأس زوجته دون خوف من أيّ متابعة، وليس المقصود هنا المتابعة القضائية، لأنّ هذه الأخيرة غير متوفّرة بل المقصود هو الجماعة التي تعتبر القتل حكما كافيا في مقابل عدم مطالبة الزوج أيضا بالمهر الذي كان قد دفعه.

إذا وُعد شابّ بالزواج من فتاة معيّنة ولكن الطمع استبدّ بوالد تلك الفتاة ويوشك أن يجعله يخلف وعْده وذلك بتزويج ابنته من آخر، فإنّ الشابّ يشعر بالهوان وكذا جميع عائلته تشعر بطعنة عميقة في كرامتها ولذلك يجرّد الجميع أسلحتهم وتقع مواجهة شرسة قد تمتدّ على سنوات، تتوقّف ثم تستمر حتّى يتمّ التراجع من هذا الطرف أو التخلّي من قبل الطرف الآخر، على المرأة محلّ النزاع.

إذا كان الزوج مستاءً من زوجته أو أنّها أصيبت بعاهة أو عجز[38] فله الحقّ في التخلّي عنها بإرسالها إلى ذويها مطالبا باسترداد المال الذي دفعه مهرا لها، وللزوج الحقّ دائما في الاحتفاظ بحضانة أبنائه في حالة الطلاق .

---

[37] *ibid*. pp. 280- 281 - ؛ لا ندري ما مدى صحة هذه المعلومات التقريرية التي يسوقها فيرو، ولعلّه لم يفهم حرص المجتمع على حماية المرأة التي فقدت زوجها والتكفّل بالأطفال اليتامى، إذ لا شيء يمكن أن يحمي الأرملة مثل الزواج وتبعا لذلك يعيش أبناؤها في كنفها، وقد فلتت من فيرو عبارة : *" وإذا كان للأرملة أبناء فإنّهم ينشأون في منزل (...) الذي يدير الثروة التي تركها والدهم إلى أن يدركوا سنّ البلوغ "* وهذا دليل على أنّ الهدف الذي رسمه المجتمع ليس التنافس البهيمي على الظفر بالزواج من الأرملة بقدر ما هو ضمان الحماية لها ولأبنائها .

[38] في القبائل الشرقية تقوم المرأة بأعمال شاقّة كثيرة مثل جلب الماء والحطب والحصاد والجني وتساعد في قلب الأرض ولذلك ما إن تصل الثلاثين من عمرها حتّى تكون قد اهتلكت وأدركتها الشيخوخة، حسب فيرو ولكن لا ندري ما مدى صحّة ملاحظته هذه .

"... في الماضي، يقول عدد من الشيوخ القبايل ؛ كنّا مستقلّين وكلّ واحد سيّد نفسه، كان الشجاع لا يخشى من أحد، يقتل عدوه دون رحمة، ولم تكن حياة الإنسان أكثر قيمة من ذبابة !.

إنّ أكبر إهانة وأفظع عقوبة يمكن أن تلحق بقبايلي هي حرق منزله ليس لأنّ المنزل ذو قيمة هامّة ولكن لأنّه المكان الذي يحفظ كرامته وفيه تكوّنت مشاعره وعواطفه، وفي هذا الشعب "المتأخّر" الذي ليس لاندفاعه حدّ، كثيرا ما تكون هذه الإهانة سببا في ارتكاب انتقام بشع، وإذا تعرّف صاحب المنزل المحروق على الجاني فإنّه يقوم بتقديم شكواه إلى الجماعة، وهذه الأخيرة تأمر فورا بإنزال أقصى العقوبة على الجاني، وإذا كان الجاني من قبيلة أخرى تتجنّد قبيلة الضحية وتحمل السلاح لشنّ الحرب على قبيلته (أي على قبيلة الجاني طبعا)، أمّا إذا كان من نفس قبيلة الضحية فإنّ الجماعة تتنقّل إلى منزله فتأمر بإحراقه وتحويله إلى رماد والاستيلاء على مواشيه كلّها فتُذبَح لإعداد الوليمة للجماعة.

نادرا ما يقْدِم القبايلي على بيع بستانه أو أرضه بل يفضّل رهنها وينتظر حتّى تمرّ الضائقة المالية التي حاقت به ثمّ يدفع المال لاسترداد أرضه[39].

وجدنا (يقول فيرو) عند بعض قبائل الجهة مثل القبائل المجاورة للبابور وفرجيوة عادات أخرى مثل التجوّل بالعروس وهي تمتطي بغلة رفقة رجال مسلّحين من الأهل والأصهار والأصدقاء المدعوّين وبين حين وآخر ترتفع الأصوات بالزغاريد وطلقات البارود، وعلى كلّ صاحب منزل يمرّ به موكب العرس أن يقدّم غربالا مملوءا بالفول أو الجوز أو التين المجفّف هدية للعروس، فتأخذ العروس منه ملء يدها، تقبّله ثمّ تعيده إلى الغربال وفي الأخير تعبَّأ هذه الكمّيات المُهداة في أكياس تحملها امرأة عجوز تتلقّى الهبات لتجهيز منزل العريس[40].

عندما يصل الموكب إلى نهاية جولته تنزل العروس ثمّ تحيط بها نساء يقمن بوضع يدها داخل إناء مملوء بالسمن السائل، ويعطينها عددا من البيض تقوم بكسرها على رأس البغلة التي نقلتها بين أذنيها، وقد تبيّن لي أنّ هذه التفاصيل على درجة من الأهمّية في الدراسة الإثنوغرافية لهذا الشعب البربري مع أنّ بعض هذه التقاليد اختفت الآن تماما (1860).

---

[39] Féraud, Ch., « Mœurs ... », p. 283.

[40] نرى أنّ هذه العادة حسنة للغاية وهي تعبير عن تضامن قوي وعلى أنّ السكّان كانوا يعيشون في وئام ومحبّة متبادلة لا كما صوّرهم الكاتب في البداية بأنّهم مجموعات قبلية متنافرة متناحرة.

" دون الحاجة إلى إقامة مقاربة عميقة ما بين هذا التقاليد والمعتقدات الوثنية نكتفي بالإشارة إلى ما ذكره بلين (Pline, Histoire Naturelle) عن الممارسات السحرية في عصره حيث أشار إلى أنّ الساحرات إذا أردن إلحاق أذى بشخص يقمن بكتابة اسمه على قشور البيض، وذلك شبيه بما أشار إليه بعض الباحثين المحدثين من أنّ كسر البيض وإفراغه من محتواه يقصَد به إبعاد الأذى السحري.

عندما تضع العروس قدمها في الأرض للدخول إلى منزلها الزوجي يقدَّم لها الحليب واللبن والماء، ثمّ ملء يد من القمح ومن الشعير ومن الملح وعليها أن تذروه يمينا وشمالا فوق منكبيها لإنزال البركة والخير في العائلة التي انتقلت إليها، ويقترب العريس بدوره ويطلق طلقة بارود على رأس عروسه ليسكن الخوف قلب عروسه فلا تعصي له أمرا.

ينبغي الإقرار، رغم حالة القهر المسلَّطة على المرأة، بأنّ هؤلاء الجبليين ليسوا مجرَّدين من مشاعر الحبّ الحقيقي ويمكن تقديم أمثلة واقعية في الموضوع ولكن في دراسات أخرى.

بعد القيام بالطقوس المذكورة أعلاه وهي دليل على ذهنية التطيُّر المتحكّمة في هؤلاء السكّان، تدخل العروس إلى الغرفة وتتخطّى بقدمها الأيمن العتبة فيقوم العريس بحملها بين ذراعيه إلى الداخل ويبقى الأهل والمدعوّون ينتظرون في الخارج، وعلى العريس بعد أن ينال وطره أن يعلن عن ذلك بطلقة بارود من بندقيته فيفهم الجميع مغزى هذه الإشارة وتتعالى الأصوات بالغناء والزغاريد وتزداد طلقات البارود وترقص النساء بقميص العروس المخضّب بدم البكارة ثمّ تظهر العروس بنفسها وسط النساء وتشاركهن في الرقص والقميص بين يديها، ويأتي دور الرجال فيرقصون أيضا ويستمر الحفل على ذلك المنوال[41].

وفي الأخير يرى فيرو أنّه من الأهمّية تسجيل بعض الأغاني التي تؤدّى في مثل هذه المناسبات وهي أغاني تحكي قصّة غرامية قصيرة أو حادثا مهمّا تعبّر حسب قوله "بسذاجة" عن خصوصية هذا الشعب :

[41]Féraud, Ch., « Mœurs... », pp. 429-430.

غناء العروسة

أما مشيت يا رجلي وخلّفت من غَبّار..... جابوها احبابي دَالبيزان[42] دي[43] عقّار

سلامنا على مول الـــــــدار ..... احباب لالّة يلهطوا[44] بالنـــــار

سلامنا على الوثـــــــول[45] ..... احباب لالّه الكَلّ فحـــــــول

سلامنا على باب الحـــــوش .... احباب لالّة رافدين الكبّـــوس

شعّلوا المصباح والزيت م البطّة[46] ..... احباب لالّة لابسين الفطّـــة[47]

شعّلوا المصباح نشوف الحـــالة ..... احباب لالّة د الدهب شعّالـــة

لالّه لعروسة بنت الـــــدوادي ... خلّينا بوها يبكي وينـــــادي

يا لالّه لعروسة يا حنيشة التـــريق ..... امّ لعيون اكحل والحاجب رقيـــق

قول لامّ لعريس تجبد ما خـــبّات ..... تجبد لخلاخل للعروسة اللي جـــات

قول لامّ لعريس تجبد ما خـــبّات ..... تجبد لبزايم للعروسة اللي جـــات

قول لامّ لعريس تجبد ما خـــبّات ..... تجبد لمحارم للعروسة اللي جـــات

إنشاد حربي

بني توفوت والسوكية[48] اقواو بالمراسلية

اقواو بالمراسلية قالو قومو على لبلاد

اطربو[49] البولدون[50] يا اسيادي اليوم وصل لجهاد

مشّاط والسوكية من سينات غارت لـــيّ

---

[42] دا البيزان تركيب عربي بربري : دا، أداة التعريف البربرية، البيزان جمع باز بصيغة بربرية وهو الطير المعروف، والنصّ الغنائي هنا يشبّه أهل العروس بالبزاة إشارة إلى الرفعة وعلوّ الهمّة .

[43] دي حرف جرّ للتملّك (لاتيني) .

[44] يلهّطوا، بربري : يعني يبحثون بلهفة عن شيء .

[45] أوثول، بربري : وهو الأرنب .

[46] البطّة في لغة القبائل هي الجرّة التي تُخزّن فيها الزيت .

[47] الفطّة، الفضّة النطق البربري لحرف الظاء حسب لهجة كتامة البربرية .

[48] السوكية : إحدى العشائر .

[49] اطربو أي أضربوا، قلبت الضاد طاء كما هو في لهجة كتامة البربرية.

[50] البولدون من البربري أبولدون وهو الرصاص.

من سينات[51] غارت ليّ وانايا قطعت القوت
آيّاو نزرّدو للنسورة بالخيل دي بني توفوت
نغنّي على الحنّاشي[52]
كيف التركي فْ لَمْحلّة[53] ماشي
هُوَ دْ لفحل علْ لعراش بيه نعمّر احبارة
هاداك اليوم على مرجاجة[54] والبارود د العجاجة
البارود د العجاجة والطياح كيف الريش
اللي خوّاف يا رجّالة من الدار ما يجيش
يا داك النهار ف لقصر والبارود يقيّل يطرب
يا خوتي لا باو إفرّو فيها شيانت الشبّان
عبد الله د الصيد ومحمّد دْ بلّهْوان[55]

خاتمة:

منذ بداية الفترة الاستعمارية انتظمت البحوث الاستشراقية والإثنوغرافية والتقارير الوصفية المتعلّقة بأفريقيا الشمالية في ثنائية متعارضة تقسم السكّان حسب معيار القوالب الجاهزة وتضعهم في تناقض مطلق، وهذا الحكم يحمل على وضع تقسيم صارم للعمل العلمي؛بحيث جُعلت الإثنوغرافيا مجالا للبحث في الأعراف الاجتماعية لأنّها مرادفة للرواية الشفوية، التي تحتفظ في نظرهم بمخزون بدْعي وحتّى سحري وبدائي، يعود إلى الفترة السابقة للإسلام في حين جُعلت الدراسات الاستشراقية مجالا لدراسة الشريعة (الاسلامية) وخاصّة قانون الأحوال الشخصية المستمدّ منها مع أنّ الأعراف لدى الجميع: محافظون ومستعربون– ظلّت بربرية، فهيئة الجماعة (تاجماعت أو آيذوذ) وسلطاتها

[51] سينات مكان ما بين قبيلتي بني مشاط وبني توفوت.
[52] الحنّاشي من أولاد حنّاش، فرقة من أولاد عيدون المتمركزين على ضفاف الوادي الكبير.
[53] المحلّة : حملة عسكرية تركية لجمع الضرائب.
[54] مرجاجة اسم جبل وقبيلة (أنظر موقعها في الخريطة) .
[55] Féraud, Ch., « Mœurs ... », pp. 432-434.

وتشريعها تقوم على العرف الذي ظلّ قائما ولا يزال إلى الآن في كلّ جهات أفريقيا الشمالية.

على صعيد الوقائع، سيقيم المستعمر – الذي يستند على هذه المعرفة الإثنوغرافية والاستشراقية – في الجزائر والمغرب على الخصوص– منظومتين متميّزتين في الإدارة القضائية؛الأولى في مجال الأحوال الشخصية يعيَّن لها قاض حسب الشريعة الإسلامية، أمّا المنظومة الأخرى فيعيَّن لها قاضي الصلح (juge de paix) للنظر والحكم في المسائل بموجب العادات والأعراف البربرية المقنّنة لهذا الغرض.

وعلى الصعيد المعرفي، فإنّ هذا الازدواج بين التراث البربري القديم من جهة والشريعة الإسلامية من جهة أخرى يقترن بمقولات الأنثروبولوجيا القانونية بحيث أنّ التقاءهما يمكّن حسب هؤلاء من ترسيخ واستمرار التمييز بين القانون الإسلامي(الشريعة) والعرف البربري وبالتالي بين القانون الجزائي (الإسلامي) من جهة والقانون الجزائي الذي تقرّه هيئة الجماعة (تاجماعت البربرية) من جهة أخرى، ولذلك نلاحظ أنّ أوّل ما اتّجه إليه فيرو هو الوضع الأمني في المنطقة، وكيف كانت علاقات المنطقة بالبايات في قسنطينة، وكذا الأعراف التي تحكم هؤلاء الجبليين كما يسمّيهم، وفي هذا السياق يشيد بالدراسة الرائدة التي أنجزها هانوطو عن زواوة، وفي إشارته إلى حالة التمرُّد كأنّه يحذّر من طرف خفيّ سلطات الاحتلال الفرنسي، ويلفت الانتباه إلى أهمّية "الجماعة" التي هي وحدها المتحكّمة في حياة هذا الشعب الذي لم يتردّد في وصفه بالبدائي.

يقرّر فيرو إذن، بأنّ العرف أقوى من الدين عند هؤلاء الجبليين وأنّ الجماعة وهي تحكم بموجب العرف – الذي هو امتداد للتراث البربري السابق للإسلام – أقوى من « الطلبة » الذين يمثّلون شريعة الإسلام، وحتّى الأشخاص لا يحتكمون – في نظره – إلى النصّ القرآني بقدر احتكامهم إلى العرف بل إلى القوّة لإرغام الطالب على تنفيذ الأوامر وإلاّ ناله الأذى وهو هنا يلفت الانتباه إلى أهمّية دراسة العرف المحلّي، وقدّم الوثيقة التي عثر عليها كمثال، ولقد كانت هذه الدراسة ومثيلاتها من بين العوامل التي جعلت قيادة الشؤون الأهلية في الحكومة الفرنسية تعتني بتكوين وترسيم جماعات العرش بقرار مشائخي في كلّ دوّار وقبيلة في عموم الجزائر والهدف كان دائما هو امتلاك آليات التحكم في شعب محتلّ حديثا، بمعرفة نعراته وعناصر الإثارة المتحكّمة فيه وكذا عوامل التضامن والتنافر بين أفراده لضربه ببعضه البعض متى دعت الظروف إلى ذلك.

ولعلّ الطريف في هذه الدراسة هو هذه المعلومات المتعلّقة بتقاليد الزواج والأسرة عموما إذا صحّ فعلا ما سجّله في هذا الجانب مع ما في ذلك من بعض المبالغة في تصوير وضع المرأة على الخصوص، لأنّ أيّ شعب عاش وضع هذه المنطقة – الذي هو وضع الجزائر كلّها – ستتردّى أوضاعه، فهو شعب بلا مدرسة وبلا تعليم أجيالا عديدة أي أنّه بلا نخبة مستنيرة قرونا طويلة وجاء الاستعمار ليضاعف معاناته ولذلك آل وضعه إلى ذلك المآل .

Les Tribus de la Kabylie Orientale d'après le sénatus consulte

نزال الشمال الذي نصب عقد القرار للتاجي

الحدود الإدارية لولاية جيجل الحالية